

الكتاب الأول

هدى حسين

ليكُن

شعر

المجلس الأعلى للثقافة

لِيَكُن

الطبعة الأولى ١٩٩٦
المجلس الأعلى للثقافة
سكرتير التحرير : منتصر القفاش
لوحة الغلاف : رسم بالحبر الصينى «أحمد اللباد»

لِيَكُنْ

هدى حسين



١٩٩٦

مربع فارغ

أرسمه أول الصفحة

يمكنه أن يكون ورقة مصغرة

أو شاشة عرضٍ في دارٍ لها معمارٌ تاريخيّ

يمكنه أيضاً أن يكون جداراً

أو نافذةً

أو حجرةً متروكةً لغبارها..

لا أريد شيئاً

هذه الجملة أكررها كثيراً

فى وضع جنينى

فى هدوءٍ
كبروا فى السماء
وقد نسوا أن يولدوا.
أُغلقوا عيونهم وتمددوا صامتين
يقلبُ السحابُ أعضاءهم
والشمسُ تُدفىءُ الجلودَ التى نَضَجَت دون أن تعى.

تركوا أشباحهم معلقةً على النوافذ
ليلتفتوا إليها ويلوحوا.

كانت تَعْرِفُ
أنها عندما تُحَرِّكُ شعلةَ المصباح
سيرقُصُ لها الظِلُّ
وأن سلك التليفون
عندما تصحبه مِن الحجرة إلى المطبخ
تنقلُ معه ثعابينَه المُدَلَّلة
للأصواتِ فحيحٌ أيضا
وللسماعةِ ذاكرة.

هذا الرنينُ مثلا
إشارةٌ لإنسحاقِ الذاتِ بجرف الآخر.

والهواءُ الذى يمر علي فنجانِ القهوةِ الفارغِ
ينفضُ أرواحه الشريرة
التى تنسحبُ حدقتاها لأسفل
كثمارِ الجَوْزِ العارية.

كُلُّ شيءٌ رماديٌ في الظِل.
كُلُّ شيءٍ له رماديته في الظِل.
والأشياءُ كُلُّها
مرايا لنزوةِ ظلٌ عابرة.

تلك الداكنةُ التى تَعْبُرُ الطريقَ بانفعالٍ
ساهمةٌ فى اتجاه الضجّةِ التى أهْمَلَتْ وجودَها
كانت تَتَدَلَّلُ على الذى غَازَلَهَا رهانا على تَحَمُّلِه
فأسرَعَ بالتقاطِ ابتسامةٍ دَحْرَجَتْهَا على السلم
وجرّبَ مفتاحين متشابهين،

قَلَبَ العُلَبَ الفارغةَ بحثاً عن الكعكِ الحامضِ قُربَ الحَوْض
وبشكل عفويٍ
عَضَّ شَفَتَهُ السفلى يسارا.

فى الصباح ستُخبرنى أنه رَحَلَ
وأن للفراق أيضاً لحظات تُعاش
سيحلو لها تَذَكُّرُ المطبخِ العجوزِ
ذى الشعلةِ التى تعكس زرقتَها على عناكبِ الجدار
وتتعلقُ بفحيحِ الماءِ لحظة فَورانه
فتُسرِّبُ الشاىَ إليه شيئا فشيئا
وتشرد..

يتحشرجُ السُكَّرُ عند تقليبه بالملعقة،
فتتأمَّلُ خاتَمها الرقيقَ وتنفجرُ من الضحك
تحدثنى عن صديقتهِ التى تعاكسه ليل نهار فى التليفون
ونشترِى برقوقاً،
نتراهن على إيقاظه شخصياً
كى يحدثنا عن ظواهرَ كونيةٍ شديدةِ الضخامة
فنُلقى بنَوى البرقوق عليه.

أَعْلَمُ أنها سوف تحيا صُعُودَهَا
وتُطلْقُ لعصافيرِ الباب عنانَ الأُغنية
وأن العينَ السحريةَ ستلتقطُها بسرعةٍ
وتتّركُ لضحكتها أن تسيل على مهل
ولأصابعها الدقيقةِ أن تضيءَ نجومَ السقف
وتُعِدَّ الشايَ الجميل
وعندما يتحادثان عن «روزا»
سأُدرك أنني لا أختلفُ كثيراً عن الوسائدِ التي أُعانقها
وأن الذاكرةَ رصاص.

المقاعدُ التى جلسنا عليها
كانت مرصوصةً هكذا قبل أن نأتى
متباعدةً
مثلما خلّفها كُلٌّ من جلسوا للقادمين
تنثرُ أطيافَ الأحاديثِ السابقةِ
فينقطعُ الحوارُ
وننسحبُ
نُرَدِّدُ كلماتِهم التى تطفو
نُلبسها جسداً آخر.

ستنفدُ سجائرُنا
كأىِّ جَالسَيْنِ نفدت سجائرهما
وسنبتسمُ فى حَرَجٍ
من هذا الحضورِ الطاغى
لكُلِّ الذين مرّوا
وتركوا أشباحهم معلقةً فى الهواء.

أحياناً

فى الأوقاتِ العصيبةِ
أتَطلَّعُ إلى صورتى فى المرآة
وأقومُ بتعبيراتٍ حركيةٍ تُجَسِّدُ هذا الشعورَ أو ذاك
والذى عادةً ما يكون بَشَرُ ما قبلَ التاريخِ
قد أغفَلوا تسميته
مع بدايةِ عُصورِ الكتابة،
فانطوتْ صفحتهُ مع الديناصوراتِ المنقرضةِ
تحت طبقاتٍ كثيفةٍ من عُصورِ الجليد.

أحيانا أتْرُكُ البيتَ لأيّامٍ عديدةٍ
في زيارة لأماكن أثريةٍ
عتيقةٍ وخاويةٍ
لها رائحةُ الكلورو فورم؛
أو مشحونةٍ بعَرَقِ المارةِ
بحيث لا يمكن لأحد أن يرانى.
أجْمَعُ تعبيراتِ الوجوهِ وأُنَسِّقُها فى ألبومٍ خاص
أحرقه عند الضرورة
أرْتَجِلُ ألحاناً وأنساها فى اللحظة التالية.

تستطيع أن تكون ألها أيها الصغير العارى
فقط
أغلق عينيك
وتأمَّلْ ما يخطر برأسك من صورٍ خاطفةٍ
يمكنك أن تدخلَ عليها ما يحلو لك من تأثيراتِ الصوتِ
أن تلطم الهواءَ بيدكَ الصغيرةِ فى محاولة الإمساك بالصور
أن تَظْهَرَ
أن تختفى وتظهر
أن تُلَوِّنَ الهواءَ بألوانِ الرصاصِ.

هامساً فى أذنى
يستطيع أن يسّرب كل فَضَلاتِ العالم
يتبعها بابتسامةٍ من المفترضِ أنْ تقيم وداً
وعندما أُلقى بكرةِ الحوارِ بعيداً وأنسحبُ إلى فوضاى الخاصة
يلتقطها بسرعةٍ لاهثاً
فى ثقةٍ من قدرتهِ على معالجةِ المواقف
فأبتسم
وأهزّ رأسى.

حقائبُ السَفَرِ الكبيرةِ
حقائبُ الذاكرِة المستقبلية
كم مرةً حشوناها بالتفاصيل
قوائم الطعام والملابس
عدد حجرات شقتنا
طلاء الحائط المميز لغرفات مكاتبنا
يمكننا أن نتخَلى عن سيارة فارهة
الدراجةُ مفيدةٌ للصحة
والتمشيةُ رومنتيكيةٌ أيضا..

.. كم ملأناها وأفرغناها
فى كل مرةٍ نعدُّ حوائجنا
نتخلى عن شىء نراه هذه المرة غير ضرورى
مقابل حملها معاً
وفى كل مرة نُفرغها فرادى
منحازين إلى عزلةٍ أبديةٍ عادةً ما تنتهى فى القريب
ونعود فنعانق حقائبنا
بحذرٍ أشَدّ
وبحركةٍ آليةٍ أيضاً
تلك الحقائب التى لعنَّاها ألفَ مرةٍ
وعليها وَحْدَهَا ألْقَيْنا اللَّوم.

سأحملُ دائماً وطأةَ كارثةٍ على وشك التفجر
كأنصافِ الأجنّةِ المتجمدة فى بِرْكَةٍ من الكتاركتا
وبهدوءِ تمثالٍ من الجرانيت
سأحصرُ زجاجاتِ الحبرِ التى تنسكبُ فى الذاكرةِ
تاركةً آثار حديثٍ متبادلٍ بين الجثثِ المنتفخةِ على سطحها
متماوجةً بلا فزع.

لى خرابةٌ هنا
ربما تبدو جميلةً فى فوضاها
موجةٌ من الأسفلت غير المقنن
سماءٌ تمتصها التجاعيد
لطخاتِ فرشاةٍ تتناثر فى هواءٍ أُعيدَ تَنَفُّسُهُ مِرارا
ستختفى ومضةٌ إثر وَخْزِ إلتقائهما
وسأنفصلُ تماماً عن الأحداث.

نقيقُ الضفادعِ
صريرُ الأسئلة الأولى
الغضبُ الذى يتسرّبُ شيئاً فشيئاً
فى حديثٍ هامسٍ
على أعتابِ مقبرةٍ فقيرةٍ
حَمَلٌ يتشبثُ بلحظة قفز
فى لوحةٍ مُهْمَلَة.

الصحراءُ تُزيحُ رمالَها القديمةَ فى أمواجٍ متلاحقةٍ
فتبْرزُ شواهدَ المقابرِ القديمةِ
الهواءَ الذى تنفسوه قديما
موتىً قدماء
يلتفون حول جذوة نارٍ
برّادَ الشاى يرقصُ فوقها من فرطِ التوتر
ارتشافُ الشاى خريرٌ آخر
قطٌ ليلىٌ بعينين لامعتَين الخضرة
يتَلفّتُ مذعوراً فى الظلام
لحظاتٌ من الضحك
هى الفاصلُ بين فتراتٍ ممدودةٍ للصمت.

لنستلقِ الآنَ
عرايا
عل مهلٍ
هذا الشاطئُ أيضاً قد يختفي
ولنَفْرَح كدلاءَ الأطفالِ السُذّجِ بريمِ الموجةِ الأخيرة
عندما يلامسُ جلودَنَا.
لنَحْتَف بالبحرِ
قبل أنْ تقرضَ أطرافَهُ السماويةَ
تلكَ الشاحناتُ
لنستلقِ متجاورين
ولنطبعَ شكلَ جسدينا في الرمل
كسردينتين ميتتين
سيأكلوننا معلبين
وسيأخذُ كُلٌ منا دورتَهُ في أمعاءٍ أخرى
لنتسلق الآن
ولنراقب بعضنا جيداً
ربما تكون الالتفاتةُ المقبلةُ عناقاً
فنندهش.

مصابيحُ الليلِ هاربةٌ من البيوتِ تَصُبُّ في الشوارع
وصوتُ الراديو يتضاعفُ وشيشه مع مرورِ الوقت
أتْرُكَ رنينَ التليفون تتخبطُ أصداؤه على الجدرانِ
بين النوم واليقظة.
أطلُّ من نافذةٍ زرقاء على عماراتٍ تصطفُ في مواجهتي
كيف يظهرُ بيتي لِمَنْ يطلّون عليه من الناحية الأخرى؟
الأشجارُ مازالت تُلِحُّ على رحيلها من لوحةٍ على الحائط
قلعةٌ رمليةٌ في الخلف
وأحجارٌ ورجلٌ منكفئٌ على وجههِ
تكادُ رأسه أن تدخلَ في خواءِ الحجرةِ.

فى الصيف المقبلِ
ستكونُ السماءُ أكثرَ زرقةً
والأشجارُ الاستوائيةُ
ستدنو فروعُها حاجبةً أشعّةَ الشمسِ
عن عروسٍ من الطَمى
أوراقُها العريضة
ترسلُ بلّورةً من الندى إلى جبينها المُحْتَرِق
بينما تستلقي على ظهرها.
الكَسَلُ الملوَّلُ
الذى تنطقُ به حركاتُها فى الليل
ابتسامةٌ شاحبة
وجسدٌ يتلوّن مع تكسيراتِ الضوء
بأزرقٍ بنفسجي.

طفلٌ عند الطَرَفِ الآخر من الغابة
في تَخَلٍ مَرِحٍ
يبدِّلُ القَدَمَ بالأخرى
على ظهورِ التماسيحِ الصغيرةِ
رافعاً عصاه فى السماء
والقاربُ الذى حَمَلَهُمَا إلى الصيفِ المقبلِ
سيعبرهما ذاهلاً

ـ «يوماً ما، سيكونُ لي بيتٌ وحدى.
وسأثبّتُ على جدرانه قصاصاتِ منتقاةٍ بعنايةٍ،
وأحفها بعلاماتِ استفهامٍ وتعجبٍ..»

ـ «سأنقرُ الأرضَ كعصفورٍ عادي، وسطَ بقيةِ
العصافيرِ التى ألفْنَاهَا فى محطاتِ المترو المكشوفة.»

ـ «سأتسلّلُ من تحتِ غطاء العائلة
أوقدُ شمعةً فى مواجهةِ العيونِ الممسوخة
فى نومٍ أليف.»

ـ «كى نتبادلَ الرقْصَ لا إرادياً»

ـ «وتحتَ تأثيرِ الدُخانِ الأسودِ المتصاعد
سأوقدُ ثلاثَ شمعاتٍ فى مواجهةِ عينى»

ـ «فنتماوجُ، ونختفى.»

لأننا أطيافٌ لا يَعْرفُ المَارّةُ كُنْهها
نصعدُ ذاتَ السُلّم ملتبِسّين
ويواربُ كُلٌ مِنّا بابَ حُجرتِه
متمدداً في غابةٍ من الأرق
يُدَخِّنُ كثيراً قبلَ النوم.
ولأنَّ الشارعَ مشحونٌ بالرسائلِ الآدميةِ
تأتيني الواحدةَ تلو الأخرى
فأنسحبُ عن الضوءِ قليلاً كي أُمَشِّطَ شَعْرَهَا
وأتركُها لِحُلمٍ ببشرةٍ حمراء من الخجل
وخصر يعتصره مقدما
حزامٌ مفتوحٌ باتجاهكِ بَعْضَ الوقتِ.
ولأجلها كالعادة
سأدعُ البابَ مواربأ
لتحدثني عنكما من البداية للنهايةِ
وَسأعدُّ لها قهوةً ودفئاً
ثم أَحْتَدُّ
على انقطاعِ الغاز..

عاريةً تبدو كببغاءٍ ميتٍ
تلك المدينةُ التي تَسَلَخَتْ أفخاذُها من فرْطِ التجول
ريشُها المنثورُ معجوناً بالطين والذباب
مازالت الريح تعبثُ بنتفه المتهالكة.
في لحظةٍ متكررةٍ كأوراقِ اللُّعب
على مائدةِ القمارِ يتكرّرُ الموتُ والضجيجُ
وتشتدُ الغلالاتُ السوداء إظلاماً على وجهِ القمرِ الممتلئ
الناصع في الليلِ كهاجسٍ
تقف قبالتهُ مدينةٌ وجدارٌ معوجٌ.
مدينةٌ تُدَخِّنُ،
عاريةٌ بإتجاهِ البحر
تصوِّبُ عينيها على المشهدِ الخلفي
وهو يلتقط أشياءَه المبعثرةَ في أركانِ الحجرة
ويهبطُ مُسرعاً
كأنَّ البيتَ لا يحمل سُلَّماً إلاَّ للهبوطِ قَلَقاً
ولا يحتملُ غير مدينةٍ واقفةٍ
تصلي

سأبدأُ اليوم بشكل مختلف
أغير نوع سجائرى إلى الأشد إتلافاً للرئة
وأبتســـم .
أُقرر أن الآخَرَ لا وجود له
وأن الوحدة مرآةٌ نافذةٍ إلى عالم أكثر ثراءً .
وسأعبُرُ الممراتِ الطويلةِ وحدى بلا جزع
من الأشباحِ التى تذوبُ متصاعدةً كلهب أسود
صنعته بنفسى
من عَرَقِ الجُدرانِ الأربعة .

متعة التأمل

أُمى تصنعُ دوائرَ بالملعقة وتخفض عينيها لسُكّارين الشاى، تثبتهما على البرامج الإعلانية وتستحلب حلمتيها كقرصى فوّارٍ انتهت مُدّةُ صلاحيتهما.

... كان طريقها من البيت إلى المدرسة حافلاً بالمحبين، لكنها لم تعد تتذكر وجوههم.. تكتفى باقتفاءِ آثارِ الطريقِ، وتنام.

أبى على السرير بجوارها يَتَكَوَّرُ فى وضع جنيني، عادةً ما يوقظها شخيرهُ أثناء الليل، فتغلقُ عليها بابَ الحَمّامِ، ولا يُسْمَعُ من الخارج إلاّ صوت الصنبور مفتوحاً عن آخره.

أبى يَتَقَلّبُ كثيراً فى النوم، أبداً لا يَفْقِدُ هذا الوضعَ الجنينيَ.

... عندما كان صغيراً، كان الأطفالُ الأصغرُ سنا، والأسرعُ تَعَرّفاً على السجائر وفتياتِ السينما، يهزأون من لُعبته الأثيرةَ، ومن أُمّه التى تضربه كُلّ صباحٍ بعد اكتشاف الملاءة...

كان عليه أن يكبرَ سريعاً، موغلاً في المسافةِ التي تفصلهُ عن «لا أخلاقيتهم»، وخجله المتواصل.

نتراص جميعا على مائدة الطعام ذات الخلفية القرآنية، فتسقط أمي من الضغط والقلب والسُكَّر، ويسقطَ أبي فوقها إرهاقاً من العمل، كعُصفورين عجوزين، أدركا مع طول التجربة، أن العمر لم يعد يتسع لفتراتٍ طويلةٍ من الغَزَل، فتفوح من حجرتهما سريعاً رائحةُ الخَلِّ والزبادى المتعفن.

عندئذ أُدْرِكُ أنه يمكنني أن أدخل عليهما بكيس الأدوية، تصحبه نظرةٌ عطوفٌ تزيدهما تضاؤلاً. حتى إذا ما أَذَلَّهُما الوهنُ قبلَ النهايةِ السعيدةِ، مَنَحْتُهُما ملاكاً لطيفاً، يأخذُ رَوْحَيهِما لله.

سأبدو فتاة مترفة استطاعت بمنتهى البساطة أن تلتهم توأمها عندما استشعرت بعد أعراض الجوع داخل بطن غريبة لأم أرادت تحت تأثير البنج أن تقبل طبيب ولادتها، أنا سأقبل العالم بأسره ربما تحت تأثير رحابة مسيحية لم أدرك أنها معنوية فقط.

تدين لي مدرسة الراهبات بأربعة عشر عامًا من القدوة الحسنة في الإذاعة المدرسية وانزعاج أبله عندما تؤكد إحدى الطالبات أن الزى المدرسي يجب إختراقه بشكل ما، وأربعة أعوام قايضتني بها الجامعة رئة تؤهلني لامتصاص غبار أشد، وللحنين إلى أصدقاء الطفولة الذين مازالت أسماؤهم محفورة على أبواب حمامات المدرسة، والذين تساقطوا الآن في طريق العودة في أكياس للتبول اللاإرادي. ستطرب العجائز المتصابيات لاكتشاف عطورهن في ذكورة تريد أن تتقافز من فتحات السراويل، تماما كانفلاتهم من فتحات السور المدرسي.

هكذا ستتواصل أجيال بكاملها، وسأعتاد عناق اثنين من جيلين مختلفين، بينما لا أفهم جيداً كيف ينتحي اثنان جانباً من دون العالم. وتأقلماً مع البديهيات المطروحة، سأكتفي بصديق صريع نصفه المنقسم على نصفه الآخر، ويحاول أن يقاتل ثعابين الحجرة بكتابة عمليات حسابية جديدة على الجدران.

وسأبحث وحدي عن حجر وسط هذا المعمار، حجر واحد فقط، لم تصقله يد الحضارة ولم تنل من هويته رموز القضايا العامة.

الحياة شيء سخيف جداً. ولهذا علينا أن نترفّع عن احتقار الذين مازالوا يبحثون عن أسئلة يبدون من خلالها أكثر تفاعلاً مع الأحداث. وبنظارة تشبه عملتي تليفونين متجاورين، على طريق عايش عصوراً متعاقبة من المبانى العشوائية، سيتأملوننا (معملين فينا إندهاشهم الذى يجب أن يبدو طفولياً فى المقام الأول، ثم قادراً على اكتشاف الإجابة الصائبة من بين الأقواس المحددة سلفاً).

الأطفال الذين كبروا قرروا لقتل الملل أن يفكروا قليلاً. ألا ترى أن ذلك سيمنحنا فرصة نادرة للقيام بشيء مختلف؟ كأن نقلى بيضا، وسمكا، حتى إذا ماصار الزيت أسوداً لزجًا، شربناه واجتررناه مراراً، دون استياء، لأن مجاراة الحياةالعصرية تستلزم حكمة قادرة على التناول الموضوعى لكل الظواهر المحيطة.

ربما يدفعنا التطلع إلى عوالم أخرى إلى غسل الأوانى، أو التحاور مع الجيران عبر شبابيك المناور.

نَحْنُ كلاب لم تَعرْف عند خروجها إلى الشارِع قَدْرَ تشوّهها. وعندما ازَدرانا المارةُ كانت صدمةُ كلٍّ منّا وخصامه للآخر نابعين من اكتشافه لُقبحه، ولأن له وجهًا مشابهاً. ولهذا احتّل كلٌ منا ركناً مكيناً من الشارِع، وأخَذ يبكي.

ليكن

شيئ عظيم سيحدث، ولهذا أتيت كى أستوعبه. كأن تعلو كومة الروث فى مرحاضنا الأبيض الملائكي، أو يتحول الأصدقاء إلى عمارات شاهقة تعلوها أطباق إرسال واستقبال. تسكن كل طابق شريحة من شرائح المعلومات، مراكمة بذلك حصيلة المعرفة اللازمة للتفاؤل الحضارى. عندئذ سأفرغ لكتابة رواية خرافية ضاحكة يقسم فيها الأصدقاء بالدراجة البخارية مثلاً أنهم حاولوا الوصول فى موعدهم لكنهم فشلوا. رواية تتجول فيها عماراتها فى الشوارع بدلاً من الاستقرار على رقم رتيب فى شارع لايتغير. سيركبون أتوبيسات هائلة الضخامة مما يتناسب مع أحجامهم الحالية، ويتقابلون فى موعد محدد، فيحتل الشارع الذى أتت منه كل واحدة فراغًا يسمح بتنفس الآخرين.

الأصدقاء العمارات..

سيتبادلون كؤوس محبة نخب مرور أعوام كافية لإقامة شرخ هائل فى جدار صداقتهم، نخب إنجاز طوابق معرفية جديدة والهزات التى تم اجتيازها بصعوبة وتتمايل العمارات من السكر فتتصادم المعلومات فزعة مدفوعة يميناً ويساراً محاولة تثبيت الحلل والأوانى فى أماكنها، وسأتأمل المنظر من الخارج كمجمع إستهلاكى تمر عبره المساومات حول السلع المعروضة والأخرى المستوردة من الخارج لسد ثغرات المنتج المحلى.

سأُرقُص مثلما رقصوا
هولاء الحمقى
كيف أتموا حركاتهم دونى ؟
يرشوننى بالسجائر كى أُقلِّمَ أعضاءهم
وأرجو
أن تكون دعابةً سامةً
فأمضغ الكثيرَ من النيكوتين
كى تبدو ضحكتى خشنة بالقدر الكافى

بائع الرهونات احتجز أحلامنا
وعلينا الآن
إذا أردنا التذكُّر
أن نتابع انعكاس صورتنا على الفترينات
بائع الرهونات يشدنى للداخل
كى يقصَّ على تاريخ الأوانى والبيض النحاسى
فتسقط حضارة بأكملها فى سوء تفاهم غير مقصود على الإطلاق.
مثلما تدعونى للرقص فأتذكر بدانتى
الارتجاجات الموضعية مازالت تصيبنى بالخجل

أَنْتَ تُرَكِّزُ انتباهَكَ على ظِلالِ البيوتِ المجاورِة
التى تتحرَّكُ دائريا على السقفِ
مستسلمةً هكذا
لكَشَّافَاتِ النورِ التى تُفَاجِئُها بها سيارات الثانيةِ ليلاً
حركاتك بطيئةٌ
يبدو أنكَ لم تَعُدْ مُنتبهًا بما يكفى لأن تكون سعيداً
ويدَكَ التى ستخْرُج فى صَباحِ الَغد
مصافحةً أصدقاءكَ
تكوُن قد بْعَثَرْت رائِحَتَها سريعًا بين مقبِض البِاب وَسَّماعةِ التليفون
لن تْحَتَاَج إلى النهوضِ لَغْسلها
اغلْق عينيَك نصَف إغلاِق وَتَرنَّح قليلاً
لن تْخسَر الحياَة شيئًا
ولن ينهاَر العالُم
سعادتك
صارت مُرَّكزةً فى لحظاِت من الأُرق
تقضيها بين المرآة والنافذِة
صرت مُهَّذبًا إذا
ويبدو أنك تجاوزت مرحلةً عنيدة.

هَكَذا بهدوءٍ تحْتَجزُ امرأةٌ بين يقينين
وتَغْضَبُ عندما تَسْأَلُك: «هل أستوعبكَ؟»
تُعلِّمُها أنّكَ خارج لاقتفاء أثر أسئلة قديمة
وأن الأسماءَ المستعارةَ قد تخفِّفُ مِنْ وطأة اليومياتِ
والسجائر التى نَفَدَتْ
لَنْ تتَرَدَّدَ فى النزول لاصطحاب غيرِها
فلتبقَ عاريةً إلى أن تعودَ أو لاتبقى
المهم، ألاّ تُغيَّر ترتيبَ الوَسائد
والملصقات الطفوليِة التى تخفى كلاَحَةَ الجدرانِ
والنوافذُ النوافذُ
حذَارِ أن تنفتح!

لماذا عليَّ دائماً
أن أستسلِمَ للوقوف على مدخل الشارع
حاملةً أكياسَ القمامة التي ألقاها الأصدقاء
قبل الانقضاضِ على معشوقاتهم
منتظرةً أن تخرجَ منها قطة وديعة
أو مائدة عرسٍ ملونة
لجندي سيسافر غداً إلى فيتنام؟

لماذا أريد أن يمتصني شيءٌ عقيمٌ
كذراعي حبيبي الذي عادةً مايطير من الفَرَح
لاجتياز مراحل هو وحده الجديد بإدراك أبعادها؟
أو كرصاصة حلزونية خرجتْ من أفواهِ الماضي
لكي تسقطَ أخيرا
وبلا ضجة
على هذه الكتلة من الأسفلت غير المتشكّلِ؟

لماذا عليَّ أن أختار شيئاً يشبه طعام العشاء
أمام الفقرة الإعلانية؟
وأنا أحاور النوم بأحلام مفقوءة العينين
وحجرة تجثم فوقي أشكالها الهندسية غير الموحية على الإطلاق؟
وأن أسقط في القاع الأسود للنوم
تستعمرني حجرة مفتوحة على معرض الأحلام الدائم
وظلام يشكّله خمول الحيوانات الرخوة وطنين الذباب!

لن أؤرخ لهم
سأكتفي بالتفاصيل الصغيرة
وكعجوز على حصير دكانه المستطيل
أتأمل انعكاس الشمس على الواجهات الزجاجية
وأنش صغار البق الذى تاه عن السرب الراقص
حول شحاذ يفرك الطين عن أصابع قدمه غير المبتورة
متحاشياً حفر الشوارع المشربة بماء الغسيل
سيدة قمرية الاستدارات
فى مشربيتها الخارجة عن نسق المعمار
يتدلى نصفها الأمامى على حبل الملاءات الزرقاء
هذا اللون أحبه
سأنشغل بالسماء
عن اليد المكتنزة ذات المنديل الأصفر
الزاعق باتجاه عرق التشابك
سأخبرها أنها لاتتطابق مع بصمة فى رأسى
وأننى أنتشى بالخطر
على حافة الهوات السحيقة
وقوة الهواء المقابل
سأنشغل بمحال البقالة والجزارة والوحدات الصحية
وكلاب الشارع الرحب المرصوف بعناية
وعندما يبرق الآخران إثر طرفة من أيام طفولتها

لن يبقى من الْمُقَطّمِ إلاّ اسمه على اللافتاتِ
وسألهو بالأحداثِ الهامشيةِ
كأن أُركَل حجراً
أو أُصادَق طفلةً حليقةَ الرأس
هذه أوَّل خطوةٍ للغناء
سيُعجبنى صوتى
وسيُقطعه الحوار.

أُرِيد أن أشرَب نخبَ انتصارٍ ما
أجرِّب العَصَف بشيءٍ شديد الأصالة
وأن أنهار الآن
ربما يُكسبني اقتناعٌ بالفناء شيئاً من الحِدّة كي أواجه الأحداث
ستحبو طفلةٌ تحت قدمى
وسأحبو أيضاً كي أقتنص طفولتها
سأحاول إقناعها منطقياً
أن أفتقاد الأشياء الأولى بسيّط جداً
كوخز إبر التطعيم
أو ربما أتطاول عليها قليلا
إذا ماتجاهلتنى مأخوذةً بضخامة الأشياء
وأفجّر بالونةَ ضحك شديد اللهجةِ
برأس ترموتر – طفولى أيضاً –
فى مؤخرتها.

لم لاأسب حبيبى هذه الليلة، وأدعه ينكمش كأرنب «آليس» الذى لايُمثّل أى دور فى تطور الأحداث؟ فألعق أذنيه الطويلتين حتى إذا مازحفت مؤثرات الصوت على جسمه بالكامل وأغلق عينيه تأثرًا، انزويت فى طرف المقعد البعيد، مشعلة سيجارة وسط هذا الظلام.

أمى تُعلّق أثداءها فى السقف. وعلىّ، كى أصل إلى حلمتيها العقيمتين، أن أراكم ذكرى الكراسى التى جلست عليها فى حجرات أخرى. يتضخم ثدى أمى إلى أن يجثم فوقنا ساحبًا كُل هواء الحجرة، ثم يسقط هكذا ببساطة على الأرض كثمرة أكلها العطب، أو كقطعة أثاث نخرة ملقاة بعفوية فوق كومة الأشياء القديمة.

سأحمل ثدى أمى على صدرى، وسأعلقه هذه المرة بطرف الشقاب الموقد فينهار المشهد لأن ثمة خطأ يكمن فى مكان ما، وعلى أن أعيد ترتيبه ثانية؛ فآتى بحبيبى وأمى والسجائر ،والثقاب، وأبدل الأماكن بكُل الأشكال المتاحة:

فأسب أمى ويهبط حبيبى فوقى من السقف. قد أسب السجائر وأنزوى بحبيبى فى ركن المقعد، فتسقط علينا أعواد الثقاب المشتعلة... إلخ

كُل الأشكال متاحة هنا لتكوين علاقات جديدة تثرى الاستخدام البلاغى للغة. لكننا فى النهاية، أنا وحبيبى، سنشرب القهوة ونتشاجر. سيتأملنى كثيراً موضحاً وجهة نظره المفقودة، بينما أراقب ترتيب الأشياء فى أماكنها، وأقطع الليل هرولة بين البيوت والتكوينات التى بنيتها وهدمتها بالقطع الخشبية لطفولة انحصرت فى لُعبة المكّعبات.

فيمَ تفكرين الآن؟
تقبضين بيديك الصغيرتين على كل شيئ
تحركينهما فيتشكل المشهد
جميلةً بما يكفى لأن يطيعك العباقرة الصغار
كأن الطائرات لاتحمل إليك غير اللاجئين
متسلقين حبال الطفولة التى تقطرها عيناك الثاقبتان
كأنكِ فى لحظات الملل
تُمسكين فتحةَ الشرج عنوة عن إخراج فضلاتها
بينما تمارسين الجنسَ ببراعةٍ وباشمئزاز
أىُّ أرضٍ تستوعبُ كلَّ الكراهيةِ التى تشفقين على نفسك من جراء حملها
والحُب الذى يفوق احتمالَك
غيرُ جديرة به تلك العرائسُ الخشبيةُ المتراكمةُ
إحساس بالاكتفاء
إحساس بالموت.

فى غياب تام
كأيام السجائر الأولى
عندما كان فرك ورقة خضراء بين السبابة والخنصر
يعنى اقتطاع شرائح لاتغتفر من الذاكرة
وتركها
على مدخل البيت
طعاماً للقطط الضالة
ذات الظلال السوداء العالية على الجدران
سأمسح حذائي جيداً
كى لاتصل آثار التسكع إلى ضمير الأسرة
وأصفع الباب بترفع مأساوى
محدقة فى الكتل البشرية المتراصة خلفه
ثم أطفو ببطء بين موجات البانيو
فى تجاوب مع صفحة جديدة من تاريخ العلاقة مع الماء
سرعان ماتدفع بها البالوعات إلى حيث تنتظر صفحات من تواريخ أخرى
أو أختلق حكاية ليلية
تنفض أمى آثارها فى الصباح من نسيج الأغطية
فتتناثر على الطريق السريع مشاهد صامتة ذات دلالات.
أو أشعل ثقاباً عن آخره إلى أن يبدو كمهرج زنجى
أعياه تكرار النكات السخيفة
أشعل آخر

وأتركُ ثالثاً على طبيعته
كى ينظف الجيرَ بين أسنانى جيداً
كُل شيء سيبدو هادئًا برغم ذلك
وأظنه سيبقى هكذا إلى الأبد.

أَلَم يُصبْكَ الإحباطُ أحياناً لأنك لاتستطيع التحدُّث إلى نفسك وجهاً لوجه؟
أن تُصدر إليها نكتةً بليدةً بعد حديث غارقٍ في الجدية؟
أن تُقَدِّم لها أصدقاءك وتهمس في أذنها:
«هذه هي أحدث مجموعة من الدمامل علينا فقأها معاً»
أن ينمو بينكما حس كوميدى فاجر..
تقاسمك قهوة المساء
فتحاولا معاً تخيل الصورة التي سيطرز بها البن براز صباح الغد
مندهشين لكم الغباء الذي تتسم به هذه التكوينات!

ألم تلصق وجهك أحياناً في المرآة فتجد أنك تشبه حيوان الباندا
أو كعكة مصابة بالجدري؟
تمط جفنك الأسفل بحثاً عن جذور الحمرة في عينيك
عن أول غيمة شجعت الهالات السوداء على التراكم فوقها..

سأعد القهوة وأتركها لأغرق في ضوضاء العالم
ثقيلة كالأشباح التي أرسمها ليلاً بهدف الوصول لشيء جارف كالفزع.
العيون التي حولي كأنها طحالب ميتة
تسيل بعفن على وجوه المارة
أستطيع الآن بوقاحة أن أثبت عيني على سراويلهم
وأن أتفوه بكلمات بذيئة
أستطيع الانخراط في ضحك مأساوي

إذا كان هذا سيبدو ملائماً
أن أشترى قمصاناً وسجائر أيضاً
أزيحَ العجائز الذين أحبونى كثيراً
وأفسح المكان للحفلات التنكرية.
الوحوش التى ألفناها صغاراً
تمسح الشوارعَ بأقدامها
فيجعلنا دبيبها نتكوّر داخل الأغطية
كديدان البلهارسيا
الأشباح التى نتخيل أنها فى جولتها
تبتلع شريطاً من السيارات الملونة كأنها تبتلع شريطاً من الحلوى
سنتآمر على تكثيفها فى مربع فى الذاكرة
ونجعلها تنتظر فى هلع لحظة استدعاء كهذه
فتفرك عينيها بحذر
وتصطك أسنانها كالجرذان
عندما نسلط عليها كشاف ضوء مفاجىء...

كم أتمنى أن يكون فى يدى الآن ديوان شعر
كى أضعه جانباً وأتأمل جملة فى الفراغ..
الأشياء العابرة مازالت تحط على رؤوسنا
كأنها الطبيعة مثلما نود أن نتخيلها:
فراشة فى البحر

ونخلةً تستعدُ للطيران..
سأصْنع قهوةً
وطقوساً لكل مناسبة.
سأشترى أقنعةً لأصدقائى
ولأمى أقراصاً مُنَوِّمَةً
أرتدى ثوباً من الساتان الأبيض والدانتيلا
وأُسَرِّح شعرى على هيئة قنديل البحر
أريد أن أبدو جبارةً هكذا
شريرةً وجبارةً
لدرجةٍ تغرى أسماكَ السلامون الصغيرةَ بالاقتراب
وتجْعلنى عندما أنظرُ فى المرآة
أُصابُ بالغثيان..
الهواءُ الداخلُ إلى رئتى يؤلمنى بشدة
مثلما يحْدُثُ للمرءِ عندما يحك أظافرهُ بالفلين.
هذه رئتى
أريدها أن تكون سعيدةً
لأنى أحبها أكثر من أى شيء.
سأحتمى بالكبرياء الذى يُجَسِّده إيقاعُ حذائى المُنْتَظِم
ولن أُسَلِّم على أحد.
رأسى تؤلمنى
كيف يمكن لأحدٍ أن يصَفَ مثل هذا الصداع..

الأطفال أصدقائى
هل كان لهم الحق فى أن يتركونى هكذا؟
وأمى
لماذا لم تجعلنى أقضى طفولة سعيدة؟
كان يمكننى أن أتذكرها الآن...

عائدة إلى أرض الطفولة
لم تكن الأشجارُ باسقةً مثلما توقَّعتُ
وامرأة تجلسُ إلى جوار الباب
تُطعِم الفئرانَ الصغيرةَ أطرافَ أصابِعها..
لم تكن بائسة
كانت تخفض عينيها للأطفال الذين كبروا
والغبارُ الذي يلفها
أبقاها غائبةً.

أستطيع أن أحدثهم

أغلقُ عينّى على احمرارِهما
وهلوساتِ الظِّل والضوء

صحراءُ فاقعةٌ توزِّعُ صَهْدَها
شريطٌ مِنْ بخارِ الماءِ الساخنِ ملامسٌ للأرض
تخرجِ منه أغنامٌ وعصا
وفتاة شاحبةٌ تجُز على فكيها
تثير الرمالَ بأغنيةٍ رعويةٍ تدُّق لها كعبيها بالتوالى
ويتطاير شَعْرها أسوداً خشناً
فى عنادِ
مع الإيقاعِ المُنْتظم.

هي صورةٌ ستختفي فَوْرَ تشكلها
قليلٌ من الأسترخاءِ يكفي لأن يَنْسَحِبَ عَنَّا البساط
معلناً عن صورٍ أُخرى
أكثر إثارةً لروحِ التسلية.

لَنْ أموتَ تمامًا
فقط سأنفُض عن رأسى ذاكرةً كئيبةً
أختلِقُ سبَّةً وأسميها حياتى المستقبلية
ثم أُلقى بها على مؤخراتِهم
أنهمِكُ فى القراءةِ والترجمةِ
وألهو أيضاً
بمتابعةِ اختلافِ نبراتِ القططِ ليلاً
بينَ الجوعِ والخوفِ والغزلِ..
أشياءُ تُذَكِّرُ بأنكَ مازلت تحيا
وتُحْدِثُ أيضًا بعضَ الرضا فى النفس.

شيءٌ يستوقفُكَ
مرآةٌ مربعة تنعكسُ الشمسُ على بؤرتها
ليست مربعةً تمامًا
وأنت ترى
شمسٌ ذاتُ حَوافٌ
تحفُر أكواخًا في زوايا عينيكَ عندما تغلقهما
ليسهل عليها فقأهما بأطرافِ أظافرها..
صورٌ تحملها الحرارة إلى جفنيكَ
ثلاثةُ جذوع سوداَء ممصوصة اللحم
ثلاثُ نساءٍ يمددْن إليك حبالهن السرِّية
متشابكة بما يكفي لابتلاعَك
خنفساءٌ هائلةُ الضخامة تكَشفُ عن أسنانها متعَّنجةً
بينما ترعى صَغارُ الديدانِ في االفواصِل بينها..

سأُبادلُ بحجرتى أخرى للنفايات
مُقَيَّدةِ بِشِبَاكِ الطحالِب التى تقطُرُ لزُوجتها
وبعينيين مفتوحتين
سأرى
ارتطامى بأجسادٍ رخوةٍ تتطايَر فى ماءِ الحجرةِ النحاسى.
وفى رأسى شرِيط تسجيِل على السرِعة البطيئة
يُحَوِّل الحوارِات إلى تثاؤبِات مُتَقَطِّعة.

سيزورنى أصدقائى ليتأملوا
كيف صار لحمى اسفنجيًا فى الماء
وأصابعى كيف لانت أُظافُرها
سيبحثونَ عن التَميمة الحافظة
التى قد أُكون خلعتُها هنا أو هناك
وسيغوصونَ أكثر
يشدهم الماء للداخل
وسأتابعم
بعينّى اللتين ألقاهما النمل فى قاع الحجرة
وهم تداعب الطحالب أجسادَهم التى تستسلم
تدريجيًا إلى أن تطفو صامتة
بفزع
عندئذ
أستطيع أن أُحدّثهم.

لكننى
كعادة الموتى
تنتابنى رغبة فى الاعتراف
والتقاط الصور الأخيرة من ملامح أصدقائى.
أتذكر أننى أسعل وأبصق
معدتى تطحن الأكل بلا رحمة
وتخرجه منبوذاً كمصابى الجذام..
يعترينى الغضب حتى الثمالة
ويسعدنى كثيراً أن أتفرس الوجوه
التى تعانى كثيراً فى شرح مفهوم السعادة.
ذاكرة سأفقدها
مثلما يفقد المرء مذاق الأطعمة الأولى
مع سقوط أسنانه اللبنية
ولا يدرى لماذا
ويفرح أبله
يقلد ابتسامة أمه التى تدفع بيدها بين فكيه
مقتلعة ما استطاعت من أسنانه
وتلقى بها فى اتجاه الشمس.
أغلق عينى على احمرارهما
وأتأمل المشهد كاملاً..

فتاةٌ فى الفضاءِ الخالى
تتأرجُح على بندوِل يتدلى من السماء
ولاُيعرُف مصدره
وتسأل المارين عن ساعاتهم
وميعاد القِطار المنحدِر إلى قِبر أبيها..
لَم يَعُدْ هنَاك مع الأَسف
من تّبقَى هاهنا رهَن إشارته
تخفض من طبيعتها مرحبةً
وتنثنى
كمرِآة مُقَعرة
ليس لها إلاّ أن تكون هكذا
وأن تنهار أحيانًا
لأجله..

فتاةٌ معلَّقة على حَبال الميدان
تقُص شَعْرَها وتنثرهُ
مع الزهورِ القرمزيِة ومناديَل برائِحة المراحيض
على السيارِات المقبلة،
تدارى عيباً فى قدميها
غازلَةً حوله الكثيَر من النكاتِ الطريفة
ثم تسْرُِع
قبل أَن تَسْقُطَ أضواءُ المدينِة الصفراءُ على وجهها.

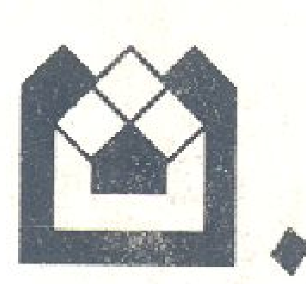
صورةٌ مثبتةٌ على جدارِ الحجرة
فتاةٌ غاضبةٌ تتفقّدُ ما آلت إليه غابتها
توغِلُ الخُطى نازعةً
عن الفروِعِ أوراقُها الصفراءَ المتشابكةَ
تهزُ الجذوعَ بقوةٍ
وتصدُرُ صوتاً كالعُواء.

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/١١١٩٠

I.S.B.N- 977 - 235 - 697 - x



مجموعة من قصائد النثر، تشير إلي امتلاك صاحبتها لرؤية خاصة، تدفع فيها اللغة إلي التعبير عما لم تتعود التعبير عنه. إن الرؤية الشعرية هنا تعتمدعلي الإشراقة الخاطفة أحيانا، و المواجهة الحادة للرتيب والراكد أحيانا آخري. وتحافظ علي حس المغامرة دائما.

المجلس الأعلى للثقافة